الحكاية

أنا مقتنع تمامًا مثلما يقتنع الكثير من الدعاة، أن مرحلة المراهقة تعد أخصب مراحل الدعوة على الإطلاق، فهي مرحلة الحماسة والانطلاق والرغبة في الاكتشاف، وهي مرحلة الأحلام والطموح والرغبة في استثمار الطاقة، وهي مرحلة البحث عن الذات وتكوين الهوية، وبناء الشخصية في شكلها شبه النهائي.

كل هذه الأسباب جعلتني أوقن أن نجاح الدعوة في مرحلة المراهقة يعني الكثير والكثير للدعوة؛ فهي المرحلة التي عندها يفترق الطريق على المراهق على بوابات الحياة، ويصبح مطالبًا أمام نفسه باتخاذ القرار الصعب:

في أي الطرق سيسير؟ وبأي العقول سيفكر؟ وبأي منظومة أخلاق وقيم سيخوض غمار الحياة ؟

وربما لا ندرك أن كل عام يمر علينا يشهد قرارات هؤلاء المراهقين في اختيار منهجهم في الحياة يشهد تغيرًا أساسيًّا في رصيد الدعوة، سواءً بطريقة مباشرة وفورية عن طريق زيادة أعداد العاملين في مجال الدعوة، أو بطريقة غير مباشرة ومؤجلة عن طريق ظهور أجيال تقف مع الدعوة تناصرها، وأخرى تتعاطف معها، وثالثة تهاجمها وتحاربها، ورابعة سلبية ليس لها من الأمر شيء، ولا يعنيها في قليل أو كثير، إلا لقمة العيش ومستقبل العيال.

وبين كل هؤلاء ستقف الدعوة تؤثر وتتأثر، وهي تنظر إلى الجميع، فرحة بأبنائها الذين ينصرونها ويضحون من أجلها، وتتسرى بمن يتعاطف معها، وتتحسر على مواهب أفلتت من بين يديها؛ لأنها لم تعرف الطريق الصحيح إليها، وتحزن على من يهاجمها؛ لأنها لم تنجح في الوصول إليهم، أو إقناعهم بالتعاطف معها.

ورغم ما تحمله هذه المرحلة من مكاسب للدعوة، فإنني أرى أن المرحلة لازالت تتسم بالغموض لدى المشرف الذي لا يلبث أن يخوض غمار الدعوة مع المراهقين؛ حتى يفاجأ بسيل من المشكلات تواجهه من كل نوع، منها ما يخص علاقة المراهق مع أسرته في المنزل، وأخرى يعاني منها في المدرسة، وثالثة مع أصدقائه، ورابعة تختص بمشاكله العاطفية، وخامسة بمشاكله الجنسية، وسادسة بمشاكله الخاصة بعدم حضور اللقاءات، وسابعة بتفاعله مع مفاهيم الدعوة... إلخ.

ويبدأ كل مشرف في الاجتهاد في حل تلك المشكلات حسب قدرته وحماسته وثقافته، وما يتعرض له من مواقف، سواءً بالسؤال أو بالقراءة في مرحلة المراهقة، أو عن طريق المحاولة والخطأ.

إلا أن كثرة المشكلات وتنوعها وكونها ترتبط بعلم قوي بعيد عن تخصص الكثير من المشرفين، وهو علم التربية، يجعل المسألة أصعب من قدرة كل مشرف على حدة على الحل، وأصبح في حكم اليقين أن المسألة تحتاج إلى مجهود بحثي فريد، يتعاون فيه أصحاب المشاكل وأصحاب الخبرة في تصنيف هذه المشاكل ومحاولة البحث فيها بطريقة علمية؛ لإيجاد الحلول الواقعية لها، في عمل جاد يسهم في دفع عجلة الدعوة بقوة في هذه المرحلة، وتيسر على المشرف الكثير والكثير مما يعانيه من مشكلات مع المراهقين.

بالأحضان

«لا أعرف ماذا أفعل مع هذا الولد ؟!».

لطالما سمعت هذه الجملة من والد الطالب «عادل» كلما قابلته وتحدثت معه بشأنه، وفي كل مرة، لا أجد منه إلا آهات الشكوى وتعبيرات الغضب وتلميحات اليأس من إصلاح حاله.

الشكاوى لا تنقطع عن سوء أدبه مع والديه من ناحية، وإخوته من ناحية، ورفضه المستمر لكلام والديه وآرائهما، وحالة الغضب المتبادلة بينهما والتي لا تعرف الهدوء يومًا،

ومع كل يوم يمر، تزداد حالة التوتر والشد بين الأطراف، ويظل الجو «مكهربًا»، وفي حالة استعداد قصوى لأي ماس كهربائي بين الابن والوالدين والأخوة، معلنًا عن مشكلة جديدة.. وشكوى جديدة.. ويأس جديد.

وكان من الطبيعي بعد أن استمعت إلى وجهة نظر الأب أن أستمع إلى «عادل» لأعرف منه الوجه الآخر للمشكلة، وفي الحقيقة، لم يكن مستغربًا لي على الإطلاق أن يبدو «عادل» أمامي بعكس المظهر الذي رسمه لي والده: أدب جم، ألفاظ مهذبة، اتزان في الرأي والتفكير إلى حد كبير!! صورة تختلف في ملامحها وتفصيلاتها كثيرًا عن تلك الرسومات السيريالية الغير مفهومة التي رسمها لي الأب.

وليس معنى هذا أنني لا أصدق الأب، بل بالعكس، أنا أصدقه تمامًا في كل ما قاله، ولم أظن للحظة أنه كان مبالغًا في شكواه، متجنيًا على ولده، ولكننى كنت أعرف وأفهم أنه لم يعرف أن ولده «عادل» الآن قد أصبح يحمل لقبًا مهمًّا وشهيرًا وعالميًّا وخطيرًا.. **وهو لقب**: مراهق.

وعلى ما لشهرة هذا اللقب وخطورته، فإن معظم الآباء لايحاولون إجهاد أنفسهم ولو قليلًا في قراءة كتاب عن خصائص مرحلة المراهقة، ومعرفة ما هي التغيرات النفسية والجسمية والعقلية التي تصاحب المراهق في هذه المرحلة، أو يحاولون أن يتصفحوا بعض صفحات شبكة الإنترنت بين الحين والآخر للتعرف على بعض مشكلات المراهقة التي يواجهها الآباء مع أبنائهم، وكيفية الوصول إلى حل لها، والنتيجة المؤكدة: هي التعامل الخطأ مع المرحلة، لا أبالغ أنها مثل محاولة طبيب إبطال مفعول قنبلة زمنية، أو محاولة مهندس إجراء عملية خطيرة في القلب، وفي كلتا الحالتين.. ستكون النتيجة الحتمية هي الفشل؛ لأن العمليتين تتمان دون دراسة وفهم لطبيعة المشكلة، وكيفية التعامل معها.

والأب والأم يظلان يعاملان أولادهما في سن المراهقة على أنهم أطفال، لابد أن يستيجبوا للأوامر، وأنه ليس من حقهم إبداء الرأي والاعتراض المهذب، وأنهم سيظلون مهما كبروا.. صغارًا في عيون آبائهم.

ولهذه الأسباب.. كانت المشاكل الدائمة بين «عادل» ووالده ووالدته وإخوته، ولأنني كنت أعامل «عادل» باحترام، وأنصت إليه بإخلاص، وأمنحه دائمًا فرصة إبداء رأيه فيما حدث، وأحاول أن أقيم المسالة بميزان عدل، يظهر فيه الأب مخطئًا مرة، ويظهر هو على خطأ مرة، تقبل عادل الكلام، واعترف بأخطائه، واستجاب للنصح، وبدأنا معًا خطة العلاج.

والذي حدث أن «عادل» وجد إنسانًا يحتضنه.. يستمع إليه بإخلاص، ويفهم مشكلاته بوعي، ويحترم تفكيره، ويقدر ما يحدث له من تغيرات.

وعندما يجد المراهق هذا الشخص، يمنحة لقبًا غاليًا، لا يمنحه المراهق إلا للقليل القليل من البشر: لقب صديق.

وكلمة «صديق».. هي كلمة السر في التعامل مع المراهق، فلا يستطيع أحد مهما كان، أن يقوم سلوك المراهق ويصل به إلى بر الأمان إلا إذا كان صديقه.

والواقع العربي المؤسف يقول: إن هذا الاحتضان، لا يجده المراهق مع والديه أو إخوته في المنزل أو مدرسه في المدرسة، فيظل يعاند الجميع ويرهق الجميع، ويظل يشعرالمراهق أن التعامل مع المجتمع أشبه بحرب لابد أن يكشر لها عن أنيابه طيلة الوقت.

والواقع يشهد أيضًا، أن الفئة الوحيدة التي تهتم بالمراهق، وتجتهد في البحث في مشاكله ومعرفة كيفية التعامل معه، هي فئة: مشرفو المرحلة الثانوية.

لقد أثبتت التجربة أن مُشرفي المرحلة الثانوية هم الأقدر من بين فئات المجتمع كله على التعامل مع المراهق؛ فهم الأكثر استيعابًا له، والأقدر على حل مشاكله، والأنجح في تقويمه، وغرس مجموعة من القيم والأخلاق، قادرة على أن تجعله يخوض غمار الحياة بنجاح.

إنها الفئة الوحيدة في المجتمع، التي استطاعت أن تحتوي المراهق وتروضه، وتشعره برجولته وتستثمر طاقته وتنمى عقله وتحفظ له دينه.

إنها الفئة الوحيدة التي استطاعت أن تفتح ذراعيها للمراهق، وتأخذه بكل حب، وتستقبله بالأحضان.

الضلع الثالث

رائع أن تحدث تلك الطفرة - والتي أظن أن كل المهتمين بالتربية يلحظها- في مجال الإعلام التربوي، تلك الطفرة التي نقلت نظريات التربية المعقدة ومفاهيمها الصعبة، من دائرة المتخصصين إلى عالم العامة من الآباء والأمهات، والذين كانوا في أمس الحاجة إلى مرشد ومعين ومعلم في تربية أبنائهم في هذا الزمن الصعب، تلك الطفرة التي حولت المعادلات التربوية الصعبة «المكلكعة»، إلى برامج عملية بسيطة، يستطيع ببعض الجهد والإصرار، أن يستخدمها من يريد أن يعدل من سلوك أبنائه، وينشئهم تنشئة تربوية سليمة، في وقت تاهت فيه القيم والمبادئ في زحام الحياة، وانحسرت فيه الأخلاق بشكل مخيف ومرعب.

وقد أدى الانتباه إلى خطورة عملية التربية إلى زيادة الجرعات التربوية الإعلامية في السنوات العشر الأخيرة؛ فانطلقت البرامج الفضائية تتحدث بالتفصيل عن مشكلات مرحلة الطفولة والمراهقة، وكيفية التعامل معها بأسلوب علمي مدروس، وازدحمت المكتبات بالعديد من الكتب التربوية التي شرحت بأسلوب سهل بسيط خصائص المراحل العمرية المختلفة، وأخذت تتناول المشكلات العصرية التي أجهدت الآباء في التعامل معها، وكيفية حلها.

ومع ذلك الجهد الكبير الذي لا يمكن أن ينكره منصف، إلا أن الواقع يثبت كل يوم أن «أضلاع العملية التربوية» لم تكتمل بعد، وأننا نحتاج إلى خطوات أخرى كي ننقل تلك المفاهيم التربوية إلى المجتمع بطريقة تؤتي ثمارها على الجيل الحالي والأجيال القادمة.

لازالت حيرة الآباء مع أبنائهم لا تنتهي، ولازال الآباء غير قادرين على التفاهم مع أبنائهم، ولازال العديد منهم غير قادرين على القيام بالممارسة الصحيحة لعملية التربية، ولازال معظم الآباء لا يعرفون شيئًا عن عملية التربية، ولا يعنيهم أن يعرفوا!

إلا أن الفجوة لا زالت كبيرة بين مفاهيم التربية السليمة وتطبيقها في مجتمع تائه شارد لا يعرف إلى أين يسير.

وربما فسرت الأسباب الآتية السر في هذه الفجوة الكبيرة:

1 – ضعف ثقافة الأب والأم بما يجعل البعض لا يقدر أهمية عملية التربية وخطورتها من الأساس، فيهملها تمامًا، والبعض الآخر ينظر إليها بسطحية لا تتعدى دفع الأبناء لحفظ القرآن والذهاب للمسجد للصلاة، وثالث مقتنع ويحاول ويجتهد، ولكن قدراته وشخصيته وثقافته لا يمكنونه من تطبيق ما سمعه أو قرأه بنجاح مع أولاده.

2– انهيار منظومة التربية خارج المنزل، سواءً في الشارع أو المدرسة أو الإعلام (داخل المنزل وخارجه)، مما يجعل الهجوم على المراهق عنيفًا إلى أقصى درجة، وهو ما يدفعه بقوة إلى السير في عكس الاتجاه الصحيح.

3– العنف في استخدام سلطة الآباء باعتبارها الوسيلة الأسهل، والتي تؤدي إلى نتائج سريعة ومريحة دون جهد و«فلسفة»، مما يرسب مشاعر الكبت عند الأبناء، ويجعلهم يتحينون الفرصة المناسبة للتحرر من هذه السلطة أو «التحايل عليها».

4– انشغال الآباء عن أبنائهم في دوامة الحياة والبحث عن لقمة العيش، مما يجعل عملية التربية عبئًا جديدًا عليهم لا يستطيعون القيام به.

إذن إذا توصلنا إلى أن الأضلاع الأساسية لعملية التربية هي: **الأب والأم والمجتمع**، واتفقنا على أن الضلع الأول والثاني يحتاجان إلى ترميم، وأن الضلع الثالث وهو «المجتمع» غير موجود بالمرة، فأرى أن الحل الأقرب للواقع والمنطق هو إيجاد هذا الضلع الثالث ليقيم مثلث التربية أولًا، ثم مساعدة الضلعين الآخرين ثانيًا.

إننا نحتاج بالفعل إلى ضلع ثالث، يساعد الأب والأم في عملية التربية، ويكون ملاذًا للابن للتخلص من السلطة الضاغطة عليه من قبل الأبوين، وهو العنصر الذي يستطيع أن يمارس عملية التربية بهدوء وبلا عصبية، لما يتمتع به من ثقافة تربوية وتفرغ إلى حد كبير من أعباء الحياة، التي أجلت هجومها عليه إلى حين.

إننا نحتاج إلى ما يشبه المؤسسة التربوية التي تكون على علاقة قوية بالآبـاء؛ لتتعـاون معهم في تربية الأبناء وفق أسس علمية مدروسة، تصل بالأبناء إلى بر الأمان.

إننا نحتاج إلى عقلية متفتحة، تستطيع أن تفهم المجتمع ومتغيراته، وتقترب من عقلية المراهقين، وتقدر مشاعرهم وتصادقهم، وتمثل قدوة لهم عن اقتناع وحب، دون ضغط أو تسلط.

إننا نحتاج إلى رسول تربوي، في كل منطقة، وكل شارع، وكل عـمارة، وكـل منـزل، يشبه فقيه المسجد أو طبيب الأسرة.

إننا نحتاج بقوة إلى شخص واحد.. **مشرف ثانوي**.

* * *